
كامل كيلاني
ثَمَرَةُ التَّعاوُن
جحا قال... يا أطفال

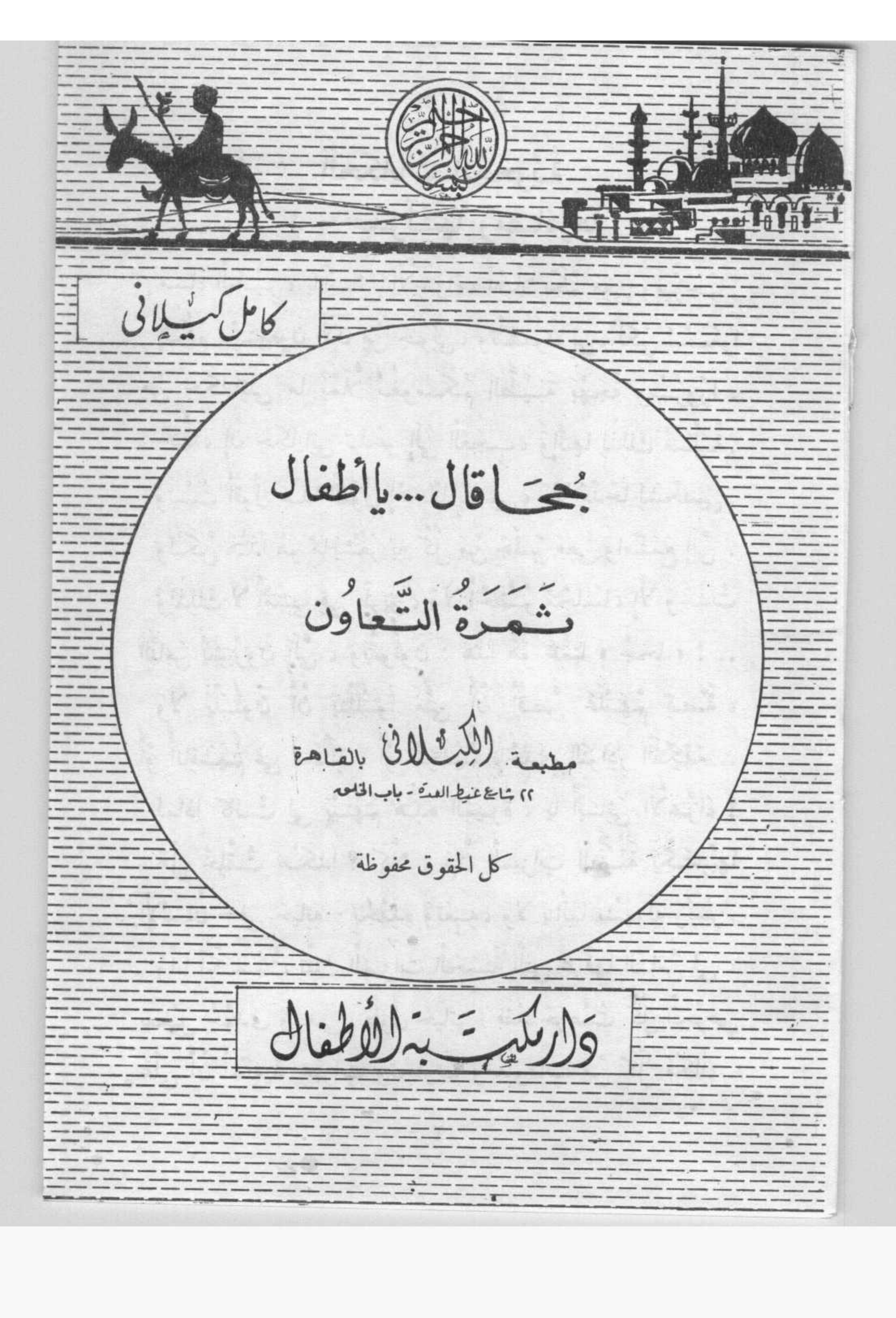
جحا قال .. يا أطفال

بقلم : كامل كيلانى

نحن جميعاً نتناقل حكايات « جحا العربى .
أبى الغُصْن دُجَيْن ابن ثابت » الظريفة ،
ونحرِص على تلقُّف ما يُرْوَى له من نِكات ،
مُعجبين بتلك الشخصية الفَكِهَة التى تُحسِن
تصوير حقائق الحياة فى معرِضٍ باسِم ظريف من التنادُر .
وفى هذه المجموعة يقُصُّ « جحا » ـ على أصدقائه الصغار ـ
طائفةً من طرائفه الطَّلِيَّةِ التى تطوى فى تضاعيفها ،
حِكمَةَ الزمن ، وتجربة الحياة .
ولم يكُنْ عَرْضُ « كامل كيلانى » لـ « حكايات جحا »
نقْلًا مُجَرَّدًا من صفحات التاريخ ، بل إنه استطاع
ـ بِمَوْهِبَتِه الخلَّاقةِ فى طريقة التحدُّث إلى الأطفال ـ
أن يصُوغَ ما ينْسُبُه إلى « جحا » فى جوٍّ من المرح
والأنس ، وذلك لإبلاغ أهداف الحكايات الجُحَوِيَّة ،
إلى المَدارك الطُّفولية النَّضِرَةِ ، فى غير جهد ولا عناء ؟

محمد شوقى أمين

عضو مجمع اللغة العربية


بسم الله الرحمن الرحيم
كامل كيلاني
جحا قال ... يا أطفال
ثمرة التعاون
مطبعة الكيلاني بالقاهرة
٢٢ شارع غيط العدة - باب الخلق
كل الحقوق محفوظة
دار مكتبة الأطفال

(الفصلُ الأوّل) **اَلْحِكاياتُ الْجُحَوِيَّةُ**

١ - مَنْزِلَتُها وَمَصادِرُها

مَساءَ الْخَيْرِ ، يا أَبْنائِيَ الأَعِزّاءَ، أَهْلًا بِكُمْ مَعِي وَمَرْحَبًا . إِنَّكُمْ تَجْتَمِعُونَ الْآنَ مِنْ حَوْلِي ، وَتَلْتَفُّونَ بِي ، لِكَيْ تَسْمَعُوا مِنْ حِكاياتِي ما يَمْلَأُ نُفُوسَكُمُ الطَّيِّبَةَ بَهْجَةً وَسُرُورًا . حَقًّا ، إِنَّ حِكاياتِي تَدْعُو إِلَى الْعَجَبِ ، وَإِنَّها لِذٰلِكَ مُسَلِّيَةٌ . وَلَسْتُ أَقُولُ هٰذا الْقَوْلَ إِعْجابًا بِنَفْسِي ، وَلا مَدْحًا لِشَخْصِي . ولٰكِنَّ هٰذا هُوَ ما يَشْعُرُ بِهِ كُلُّ مَنْ جَلَسَ مَعِي وَاسْتَمَعَ إِلَيَّ . وَلِذٰلِكَ لا أَمْشِي فِي طَرِيقٍ ، وَلا أَحْضُرُ مَجْلِسًا ، إِلَّا وَجَدْتُ النَّاسَ يُشِيرُونَ إِلَيَّ ، وَيَقُولُونَ : هٰذا هُوَ عَمُّنا « جُحا » ! .. وَلا يَلْبَثُونَ أَنْ يَطْلُبُوا مِنِّي أَنْ أَقُصَّ عَلَيْهِمْ قِصَّةً ، أَوْ أُناقِشَهُمْ فِي مَسْأَلَةٍ ، أَوْ أُتْحِفَهُمْ بِإِحْدَى النَّوادِرِ الْفَكِهَةِ .. لِماذا كانَتْ لِي بَيْنَهُمْ هٰذِهِ الْمِيزَةُ ، يا أَبْنائِيَ الأَعِزّاءَ ؟ هَلْ خُلِقْتُ هٰكَذا ؟ كَلَّا . فَإِنَّ الْمِيزاتِ الطَّيِّبَةَ يَكْتَسِبُها الْإِنْسانُ – فِي حَياتِهِ – بِجُهْدِهِ وَتَعَبِهِ ، وَلا يَنالُها بِسُهُولَةٍ وَيُسْرٍ . وَأَنا اكْتَسَبْتُ تِلْكَ الْمِيزاتِ الْحَسَنَةَ الَّتِي عَرَفَها النَّاسُ لِي ، بِفَضْلِ جُهْدِي وَتَعَبِي ، طُولَ حَياتِي ؛ فَقَدْ حَرَصْتُ كُلَّ الْحِرْصِ عَلَى أَنْ أَسْتَفِيدَ خِبْراتٍ وَتَجارِبَ وَمَعْلُوماتٍ مِنْ كُلِّ مَكانٍ .

ولَمْ يَكُنْ يَتَيَسَّرُ لِى كُلُّ ذٰلِكَ، لَوْ أَنَّنِى لَزِمْتُ بَيْتِى، وَأَقَمْتُ فِى بَلَدِى الَّذِى وُلِدْتُ فِيهِ، أَكْتَفِى بِمَعْرِفَةِ ما حَوْلِى.

فَأَنا –مُنْذُ نَشَأْتُ– لَمْ أَسْتَقِرَّ فِى ناحِيَةٍ، بَلْ كُنْتُ دائِمًا أَنْتَقِلُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، أَتَعَرَّفُ إِلَى النَّاسِ، وَأَنْظُرُ فِى أَحْوالِهِمْ، وَأَسْتَمِعُ إِلَى حِكاياتِهِمْ، وَأَجْعَلُهُمْ يَطْمَئِنُّونَ إِلَى صَداقَتِى؛ فَيُحِبُّونَنِى، وَيَبُوحُونَ لِى بِأَسْرارِهِمْ، وَيَكْشِفُونَ عَنْ تَجارِبِهِمْ!

وَبِهٰذا أُصْبَحَتْ خِبْرَتِى بِالْحَياةِ واسِعَةً، وَمَعْرِفَتِى بِالنَّاسِ شامِلَةً.

وَقَدْ دَفَعَتْنِى مَحَبَّتِى لِلنَّاسِ جَمِيعًا إِلَى أَنْ أَتَمَنَّى الْخَيْرَ لَهُمْ، وَأَحْرِصَ كُلَّ الْحِرْصِ عَلَى مَنْفَعَتِهِمْ، فِى كُلِّ ما أَقُولُهُ وَما أَحْكِيهِ.

فَأَنا –فِى كُلِّ قِصَصِى وَأَحادِيثِى– أَجْعَلُ هَدَفِى النَّفْعَ لِلْجَمِيعِ.

وَلَقَدْ سَرَّنِى عِلْمِى بِأَنَّ مَنْ يَسْمَعُونَ حِكاياتِى، يُسارِعُونَ إِلَى أَنْ يَقُصُّوها عَلَى غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهِمْ فِى الْبُيُوتِ، أَوْ عَلَى أَصْدِقائِهِمْ فِى مَجالِسِ السَّمَرِ؛ كَما تَبَيَّنَ لِى أَنَّها تُثِيرُ ضَحِكاتِهِمْ عَجَبًا، وَتَهُزُّ مَشاعِرَهُمْ طَرَبًا؛ فَإِنَّهُمْ إِذا أَرادُوا أَنْ يُفَرِّجُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ ما بِها مِنْ هَمٍّ، جَعَلُوا مِنْ حِكاياتِى وَسِيلَةً مَرْغُوبَةً مَحْبُوبَةً.

وَلَسْتُ أُنْكِرُ إِلَّا أَنَّهُمْ يَكْتَفُونَ بِالْجانِبِ الْفَكِهِ مِنَ الْحِكايَةِ، دُونَ أَنْ يَتَدَبَّرُوا جَمِيلَ مَعْناها، أَوْ يَفْطُنُوا إِلَى جَلِيلِ مَغْزاها!..

٢ - ميزاتُها وَأَهدافُها

وَالْآنَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْرِفوا - يا أَبْنائِيَ الْأَعِزَّاءَ - أَنِّي إذا حَكَيْتُ لَكُمْ حِكايَةً ، فَأَنا لا أَقْصِدُ بِها أَنْ تُضَيِّعُوا وَقْتَكُمْ مَعِي فِي لَهْوٍ وَعَبَثٍ ، وَأَنْ تَسْتَمِعُوا إِلَى كَلامٍ لا يُفِيدُكُمْ شَيْئًا .

إِنَّما الَّذِي أَبْغِيهِ حَقًّا أَنْ أَخْتارَ لَكُمْ ، مِنْ حِكاياتِي الْكَثِيرَةِ الَّتِي وَعَيْتُ أَحْداثَها - خِلالَ رِحْلاتِي فِي بِلادِ اللهِ الرَّحِيبَةِ - ما تَكُونَ لَكُمْ أَحْداثُها ضَوْءًا يُنِيرُ أَمامَكُمْ طَرِيقَ الْحَياةِ .

وَلَوْ أَنِّي لَخَّصْتُ كُلَّ حِكايَةٍ فِي جُمْلَةٍ ، أَوْ فِي جُمْلَتَيْنِ ، لِتَخْرُجُوا مِنْها بِالْفائِدَةِ الْمَقْصُودَةِ ، لَما أَثَّرَتْ فِي نُفُوسِكُمْ ذٰلِكَ التَّأْثِيرَ الْمَطْلُوبَ . فَإِنَّ مُتابَعَةَ الْحِكايَةِ الْمَرْوِيَّةِ بِتَفْصِيلاتِها ، جُزْءًا بَعْدَ جُزْءٍ ، وَحادِثَةً بَعْدَ حادِثَةٍ ، تُنَشِّطُ نُفُوسَكُمْ لِسَماعِها ، وَتُهَيِّئُكُمْ لِلتَّأَثُّرِ بِها ، وَلا تَجْعَلُكُمْ تَمَلُّونَ الاسْتِماعَ إِلَيْها .

قَدَّمْتُ هٰذا الْكَلامَ ، لِتَقِفُوا عَلَى ما أَهْدِفُ إِلَيْهِ مِنْ وَراءِ حِكاياتِي الَّتِي تُعْجِبُكُمْ وَتُسَلِّيكُمْ ، وَذٰلِكَ لِكَيْ تُؤْمِنُوا بِأَنِّي ما قَصَدْتُ إِلَّا تَعْلِيمَكُمْ بِأُسْلُوبٍ لا يَجْعَلُكُمْ تَمَلُّونَ التَّعْلِيمَ ، بَلْ إِنَّكُمْ تُقْبِلُونَ عَلَيْهِ فِي شَوْقٍ وَتَرْحِيبٍ ؛ وَبِذٰلِكَ تَجْمَعُونَ ، مِنْ أَيْسَرِ طَرِيقٍ ، بَيْنَ الْحُسْنَيَيْنِ : الْفائِدَةِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَالْمُتْعَةِ الرُّوحِيَّةِ .

فِى بِلادِ « بِسْنَجارَ »

١ - حاكِمٌ عادِلٌ

اَلْحِكايَةُ الَّتِى آخْتَرْتُها لَكُمْ هٰذا الْيَوْمَ ، حِكايَةٌ لَطِيفَةٌ ، وَقَفْتُ عَلَيْها فِى أَثْناءِ رِحْلَتِى إِلَى بِلادِ « بِسْنَجارَ » الْبَعِيدَةِ .

حِينَما قَصَدْتُ هٰذِهِ الْبِلادَ النّائِيَةَ ، وَجَدْتُ حاكِمَها رَجُلًا عاقِلًا حَكِيمًا ، لَهُ صِفاتٌ مُمْتازَةٌ . فَهُوَ لا يَقْبَلُ الظُّلْمَ لِأَحَدٍ ، وَلا يَنْفَرِدُ بِرَأْيِهِ ، دُونَ آسْتِشارَةِ غَيْرِهِ فِى شُئُونِ الْبِلادِ .

وَقَدِ آجْتَمَعَ حَوْلَ هٰذا الْحاكِمِ صَفْوَةٌ مِنْ خِيارِ النّاسِ ، يَسْتَشِيرُهُمْ فِى الْأَمْرِ ، فَيُشِيرُونَ عَلَيْهِ بِما هُوَ صالِحٌ . يَسِيرُونَ مَعَهُ - فِى حُكْمِ الْبِلادِ - بِمُقْتَضَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ .

أَعْجَبْتُ كُلَّ الْإِعْجابِ بِما تَتَمَتَّعُ بِهِ الْبِلادُ مِنْ طُمَأْنِينَةٍ وأَمْنٍ وَسَلامٍ ، وَقُلْتُ فِى نَفْسِى مُسائِلًا : لا بُدَّ أَنْ أَعْرِفَ سِرَّ هٰذا الْحاكِمِ الْعادِلِ ، وَكَيْفَ آسْتَطاعَ أَنْ يُكَوِّنَ نَفْسَهُ هٰذا التَّكْوِينَ الْعَظِيمَ ، الَّذِى جَعَلَ مِنْهُ إِنْسانًا فاضِلًا ؟!

لَمْ يَكُنْ حاكِمُ « بِسْنَجارَ » يَدُلُّ بِأَعْمالِهِ عَلَى أَنَّهُ حاكِمٌ مُطْلَقُ التَّصَرُّفِ ، لَيْسَ وَراءَ قَوْلِهِ قَوْلٌ ، وَلا فَوْقَ حُكْمِهِ حُكْمٌ .

كانَ يَرَى النّاسَ فِى بَلَدِهِ إِخْوَةً لَهُ ، وَالنّاسُ يَرَوْنَهُ أَخًا لَهُمْ ، وَهُمْ جَمِيعًا كَأَنَّهُمْ أُسْرَةٌ واحِدَةٌ ، يَسُودُها الْحُبُّ وَالْإِخْلاصُ .

٢ – سِيرَتُهُ فِى نَشْأَتِه

كُنْتُ أُحَدِّثُ نَفْسِى : لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ حاكِمُ « بِسْنَجارَ » قَدْ نَشَأَ فِى بِيئَةٍ صالِحَةٍ نَقِيَّةٍ ، أَكْسَبَتْهُ أَخْلاقًا زَكِيَّةً ، فَجَعَلَتْ مِنْهُ حاكِمًا صالِحًا نَقِيًّا ، وَإِنْسانًا طَيِّبًا مَرْضِيًّا .

كَعادَتِى فِى الْبَحْثِ وَالتَّحَرِّى ، رُحْتُ أَسْأَلُ شُيُوخَ الْبِلادِ وَخِيرَةَ أَهْلِها ، عَنْ نَشْأَةِ ذٰلِكَ الْحاكِمِ الْمُصْلِحِ الْحَكِيمِ ، وَماذا كانَتْ أَحْوالُهُ وَصِفاتُهُ ؟ فَسَمِعْتُ مِمَّنْ سَأَلْتُهُمُ الْعَجَبَ :

شُيُوخٌ كِبارٌ فِى الْبِلادِ عاصَرُوا مَوْلِدَهُ وَعايَشُوا صِباهُ ، **قَرَّرُوا أَنَّهُ ، مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفارِهِ ، كانَ يَخْتَلِفُ عَنْ قُرَنائِهِ ،** إِذْ كانَ فِى سُلُوكِهِ مُسْرِفًا فِى لَهْوِهِ ، جامِحًا فِى عَبَثِهِ ، وَكانَ شَدِيدَ الْعُنْفِ مَعَ أَصْحابِهِ ، سَرِيعَ التَّصْدِيقِ لِما يَسْمَعُهُ مِمَّنْ يَمِيلُونَ إِلَى الْكَيْدِ وَالْأَذَى ، يَأْنَسُ بِمَنْ يَتَوَدَّدُ إِلَيْهِ وَيُحَسِّنُ لَهُ تَصَرُّفاتِهِ ، وَإِنْ كانَ يَتَّخِذُ ذٰلِكَ نِفاقًا وَمُخادَعَةً !

هٰكَذا نَشَأَ الْحاكِمُ – بِخِلافِ مَنْ سَبَقُوهُ مِنَ الْحُكّامِ – يَتَعالَى عَلَى مَنْ حَوْلَهُ ، وَلا يَقْبَلُ أَنْ يُعارِضَهُ فِى رَأْيِهِ أَحَدٌ ، وَلا أَنْ يُشِيرَ عَلَيْهِ ، مُعْتَزًّا بِسُلْطانِهِ ، فارِضًا عَلَى النّاسِ طاعَتَهُ ؛ فَمَنْ لَمْ يُطِعْهُ لَقِىَ الْعَذابَ وَالْهَوانَ ، وَكانَ نَصِيبُهُ الْحِرْمانَ !



وَمِمَّا ساعَدَ هٰذا الْحاكِمَ – فِى أَوَّلِ نَشْأَتِهِ – عَلَى أَنْ يَكُونَ حاكِمًا مُسْتَبِدًّا ، أَنَّهُ كانَ يَرَى الْمُتَمَلِّقِينَ وَالْمُنافِقِينَ حَوالَيْهِ ، يُصَفِّقُونَ لَهُ فِى كُلِّ مَوْقِفٍ ، وَيَمْلَئُونَ نَفْسَهُ غُرُورًا بِسُلْطانِهِ .

واسْتَطاعَ هٰؤُلاءِ الْمُتَمَلِّقونَ والْمُنافِقُونَ حَوْلَهُ أَنْ يَحُولُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَماعِ صَوْتٍ إِلَّا أَصْواتَهُمْ؛ فَخَفِيَتْ عَنْهُ الْحَقائِقُ، وكَثُرَتْ باسْمِهِ الْمَظالِمُ فِي النَّاسِ، وَهُوَ يَحْسَبُ -فِي نَفْسِهِ- أَنَّهُ عَلَى صَوابٍ فِي هٰذِهِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي يَحْكُمُ بِها قَوْمَهُ.

وَكانَ الْحُكَماءُ الْمُخْلِصُونَ مِنْ أَهْلِ بِلادِهِ، لا يَجِدُونَ سَبِيلًا إِلَى تَقْوِيمِ اعْوِجاجِهِ، وَإِصْلاحِ أَمْرِهِ، وَهِدايَتِهِ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ والْخَيْرِ، لِكَثْرَةِ الْمُتَنافِسِينَ فِي تَأْيِيدِهِ وَإِرْضائِهِ.

وَهٰكَذا ظَنَّ هٰذا الْحاكِمُ أَنَّهُ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ فِي الْبِلادِ، وَأَنَّ رَأْيَهُ هُوَ سَيِّدُ الْآراءِ، وَسُلْطانَهُ فَوْقَ كُلِّ سُلْطانٍ، وَأَنَّ النَّاسَ، مِنْ حَوْلِهِ، ما هُمْ إِلَّا أَدَواتٌ لِخِدْمَةِ مَطالِبِهِ، والِانْقِيادِ لِإِرادَتِهِ، لَيْسَ لَهُمْ صَوْتٌ يُرْفَعُ، أَوْ رَأْيٌ يُسْمَعُ!

وَلٰكِنَّ هٰذا الْحاكِمَ تَغَيَّرَتْ حالُهُ فَجْأَةً بَيْنَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ؛ فَإِنَّهُ عَرَفَ أَنَّ الطَّرِيقَ الَّذِي يَسْلُكُهُ فِي حُكْمِهِ غَيْرُ سَدِيدٍ، وَأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّخِذَ طَرِيقًا آخَرَ يَتَّبِعُهُ فِي قِيادَةِ الْبِلادِ.

وَفُوجِئَ النَّاسُ فِي «بِسْنَجارَ» بِأَنَّ حاكِمَهُمْ يَتَحَرَّى الْحَقَّ وَالْعَدْلَ، وَلا يَدَّخِرُ وُسْعًا فِي رَفْعِ الظُّلْمِ عَنِ الْمَظْلُومِ، والتَّسْوِيَةِ بَيْنَ بَعْضِ النَّاسِ وَبَعْضٍ، فِي الْحُقُوقِ والْواجِباتِ.

٣ – سِرُّ ٱلتَّحَوُّلِ فِى سِيرَتِه

لا شَكَّ أَنَّكُمْ أَيُّها الْأَبْناءُ الْأَعِزَّاءُ ، دَهِشْتُمْ أَشَدَّ الدَّهْشَةِ لِهٰذا التَّغَيُّرِ ٱلَّذِى جَعَلَ مِنْ حاكِمِ « بِسْنَجارَ » ٱلْمُسْتَبِدِّ ، حاكِمًا يُحِبُّ الْحَقَّ دَلِيلًا ، وَلا يَرْضَى بِغَيْرِ ٱلْعَدْلِ بَدِيلًا .

صَدِّقُونِى ، يا أَبْنائِىَ الْأَعِزَّاءَ ، إِذا قُلْتُ لَكُمْ – فِى صَراحَةٍ إِنَّنِى – أَنا عَمُّكُمْ « جُحا » – كُنْتُ أَشَدَّ مِنْكُمْ حَيْرَةً وَدَهَشًا .

لَمَّا عَرَفْتُ هٰذا الْحاكِمَ الْعادِلَ ، رَغِبْتُ فِى مَعْرِفَةِ نَشْأَتِهِ ، فاسْتَبانَ لِى – كَما أَوْضَحْتُ لَكُمْ – أَنَّهُ كانَ طاغِيًا بِسُلْطانِهِ ، فَأَصْبَحَ حاكِمًا عادِلًا .. فَما سِرُّ هٰذا التَّحَوُّلِ الْمُفاجِئِ لِمُواطِنِيهِ ؟ !

هٰذا رَجُلٌ مَعْرُوفٌ بِأَنَّهُ مَثَلٌ لِلْغُرُورِ وَالْكِبْرِياءِ ، بَنَى حُكْمَهُ عَلَى السَّطْوَةِ وَالطُّغْيانِ : كَيْفَ يَتَغَيَّرُ حالُهُ ، بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَضُحاها ، فَيُصْبِحُ – بِحَقٍّ – رَمْزًا لِلْعَدالَةِ يَحْمِيها ، وَلِلْحُقُوقِ يَرْعاها ؟ !

أَلَسْتُمْ مَعِى فِى أَنَّ هٰذا أَمْرٌ عَجِيبٌ ، جَدِيرٌ بِالْبَحْثِ وَالتَّنْقِيبِ ؟

وَضَعْتُ أَمامَ عَيْنِى هَدَفًا لا بُدَّ أَنْ أُصِيبَهُ ، هُوَ أَنْ أَعْرِفَ سِرَّ ذٰلِكَ التَّغَيُّرِ الْخَطِيرِ . وَقُلْتُ : لَنْ يَهْدَأَ لِى بالٌ حَتَّى أَصِلَ إِلَى الْحَقِيقَةِ الْخَفِيَّةِ الَّتِى لَمْ أَجِدْ أَحَدًا يَعْرِفُها مِنْ أَهْلِ الْبِلادِ .

جَعَلْتُ أُفَكِّرُ وَأُدَبِّرُ : كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى هٰذِهِ الْحَقِيقَةِ ؟

تَعْلَمُونَ ـ يا أَبْنائِيَ الْأَعِزَّاءَ ـ أَنَّنِي، أنا عَمَّكُمْ « جُحا »، لا يَصْعُبُ عَلَيَّ آتِّخاذُ الْحِيلَةِ وَالْوَسِيلَةِ، لِبُلُوغِ ما أُرِيدُ.
سَأَلْتُ حُكَماءَ الْبَلَدِ وَعُقَلاءَها، فَلَمْ أَجِدْ عِنْدَهُمْ جَوابًا.
اِسْتَطَعْتُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَنْ أَسْتَأْذِنَ عَلَى حاكِمِ « بِسْنَجارَ »، وَأَنْ أَتَوَدَّدَ إِلَيْهِ؛ حَتَّى أَنِسَ بِي، وَأَعْجَبَتْهُ أَحادِيثِي وَحِكاياتِي.
لَمَّا آطْمَأَنَنْتُ كُلَّ آلِاطْمِئْنانِ إِلَى أَنَّهُ لَنْ يُخَيِّبَ لِي رَجاءً، سَأَلْتُهُ فِي لُطْفٍ أَنْ يَقُصَّ عَلَيَّ قِصَّتَهُ، وَيَكْشِفَ لِي سَرِيرَتَهُ.
أَطْرَقَ حاكِمُ « بِسْنَجارَ »، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ، وَقالَ:
« لَكَ آلْحَقُّ فِي أَنْ تَسْأَلَ عَنْ سِرِّي، وَعَنْ حَقِيقَةِ أَمْرِي.
كُنْتُ أَسْتَهِينُ بِأَقْدارِ الْخَلْقِ، وَلا أُبالِي بِقَوْلٍ وَلا حَقٍّ..
لا أَعْرِفُ لِأَحَدٍ فَضْلًا، مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ، مِنْ غَنِيٍّ أَوْ فَقِيرٍ.
ظَلِلْتُ غافِلًا، حَتَّى شاءَ اللّٰهُ لِيَ الْهِدايَةَ، وَقَدَّرَ لِيَ الرُّشْدَ، فَلَقَّنَنِي ذاتَ لَيْلَةٍ دَرْسًا بَلِيغًا، هَيْهاتَ أَنْ أَنْساهُ، طُولَ الْحَياةِ:
كانَ الدَّرْسُ الْبَلِيغُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْعَظِيمَةِ تَذْكِرَةً وَعِبْرَةً! »
قُلْتُ لِحاكِمِ « بِسْنَجارَ »: « ما أَسْعَدَنِي بِأَنْ أُضِيفَ إِلَى حِكاياتِي وَأَحادِيثِي، حِكايَةَ لَيْلَتِكَ الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَثْمَرَتْ تَغْيِيرَ مَجْرَى حَياتِكَ، وَكانَ فَضْلُها عَلَى أَهْلِ بَلَدِكَ فَضْلًا عَظِيمًا. »



لَبِثَ حاكِمُ «بِسِنْجارَ» مُعْتَصِمًا بِالصَّمْتِ لَحَظاتٍ قَصِيرَةً، خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّها ساعاتٌ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، والْتَفَتَ إِلَيَّ قائِلًا: «لَنْ أَضَنَّ عَلَيْكَ بِما تَبْغِي أَنْ أَحْكِيَهُ، أَيُّها الزَّائِرُ الْعَزِيزُ.»

اَللَّيْلَةُ الْعَظِيمَةُ

١ - حَدِيثُ الْخَبَّازِ

واصَلَ حاكِمُ «بِسنْجارَ» حَدِيثَهُ، فقالَ بِصَوْتٍ مَخْفُوضٍ:

«لَمْ أَكَدْ آوِى - فِى تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْفَرِيدَةِ - إِلَى حُجْرَتِى، وَأَخْلُو إِلَى نَفسِى وَأُخْلِدُ إِلَى راحَتِى، وَأَنْعَمُ بِتَفَرُّدِى وَعُزْلَتِى، جارِيًا فِى ذٰلِكَ عَلَى مَأْلُوفِ عادَتِى، حَتَّى رَأَيْتُ شَيْخًا جَرِيئًا يَقْتَحِمُ عَلَىَّ الْمَكانَ، بِغَيْرِ آسْتِئْذانٍ، وَيَقْتَرِبُ غاضِبًا مِنِّى، وَيُشِيحُ بِوَجْهِهُ عازِفًا عَنِّى، وَيَبْتَدِرُنِى بِالْكَلامِ، مُتَهَكِّمًا عَلَىَّ، دُونَ أَنْ يَبْدَأَنِى - كَعادَةِ مَنْ يَزُورُنِى - بِتَحِيَّةٍ أَوْ سَلامٍ.

بَعْدَ أَنْ تَطَلَّعَ إِلَىَّ، مُحَدِّقًا فِىَّ، كَأَنَّما هُوَ يَتَفَحَّصُنِى، رَأَيْتُهُ يَبْدَؤُنِى، قائِلًا لِى، فِى غَيْرِ آكْتِراثٍ وَلا آهْتِمامٍ:

«ما أَجْدَرَكَ، يا سَيِّدَ النُّجَباءِ، وَقُدْوَةَ الْفُطَناءِ الْأَذْكِياءِ، أَنْ تُدْرِكَ حَقَّ الْإِدْراكِ، أَلَّا تَعاوُنَ بَيْنَنا بَعْدَ الْيَوْمِ وَلا تَآلُفَ، وَلا صِلَةَ تَجْمَعُنا وَلا تَعارُفَ، وَلا مَوَدَّةَ تَرْبِطُنا وَلا تَعاطُفَ.

إِنَّ الْحاكِمَ الْجَلِيلَ يَتَعالَى عَلَى شَعْبِهِ، وَيُسْرِفُ فِى عُجْبِهِ. وَلِلْحاكِمِ مَوْفُورُ الْعُذْرِ فِى صَلَفِهِ وَكِبْرِيائِهِ، وَتَمادِيهِ فِى خُيَلائِهِ؛ فَهُوَ - فِيما يَرَى فِى نَفسِهِ، بَيْنَ أَبْناءِ قَوْمِهِ - قُطْبُ الزَّمانِ. إِنَّهُ بَطَلُ كُلِّ عَصْرٍ وَأَوانٍ، وَفارِسُ كُلِّ حَلْبَةٍ وَمَيْدانٍ!

لا رَيْبَ أَنَّ مَنْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَى هٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ الْعالِيَةِ ،
وَالْمَكانَةِ السَّامِيَةِ ، جَدِيرٌ أَنْ يَسْتَغْنِيَ بِما وُهِبَ مِنْ فَضْلٍ وَإِحْسانٍ ،
عَنْ كُلِّ إِنْسانٍ ، وَلا يَحْتاجَ أَبَدًا إِلَى مُساعَدَةِ كائِنٍ كانَ .
فَلْيَسْمَحِ الْحاكِمُ لِخَبَّازِهِ الْخاصِّ أَلَّا يُقَدِّمَ لَهُ الْخُبْزَ بَعْدَ الْآنَ .
ما أَهْوَنَ عَلَى حاكِمِنا الْحَصِيفِ ، أَنْ يُهَيِّئَ لِنَفْسِهِ الرَّغِيفَ .
لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ الْمُحالِ ، عَلَى الْحاكِمِ الذَّكِيِّ بِأَيِّ حالٍ ،
أَنْ يُعِدَّ الْخُبْزَ لِيَأْكُلَهُ ، بَعْدَ أَنْ يُنَقِّيَ الْقَمْحَ وَيُغَرْبِلَهُ ،
وَيَدُقَّهُ وَيَطْحَنَهُ ، وَيَلِتَّهُ وَيَعْجِنَهُ ، وَيُحْمِيَ الْفُرْنَ وَيُسَخِّنَهُ ! »
سَكَتَ الْخَبَّازُ لَحْظَةً ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ بِمُؤْخِرِ عَيْنِهِ قائِلًا :
« قُمْ ، مُنْذُ الْيَوْمِ ، بِإِعْدادِ رَغِيفِكَ ، وَاسْتَغْنِ عَنْ خَبَّازِكَ .
رَتِّبْ أَمْرَكَ عَلَى هٰذا النَّحْوِ ، فَإِنَّكَ لَنْ تَرانِي بَعْدَ الْآنَ .
كُلُّ ما أَرْجُوهُ أَنْ تُعِدَّ رَغِيفَكَ نَقِيًّا طَرِيًّا ، وَتَأْكُلَهُ سائِغًا هَنِيًّا .
أَنْتَ أَعْرَفُ بِشُئُونِ الْحَياةِ وَأَخْبَرُ ، وَأَعْلَمُ بِصِناعَتِنا وَأَقْدَرُ .
أَنْتَ تَعْتَقِدُ أَنَّكَ أُوتِيتَ مِنْ عَظِيمِ الْقُدْرَةِ وَفَرْطِ الذَّكاءِ ،
ما يُغْنِيكَ كُلَّ الْغَناءِ ، عَنْ مُعاوَنَةِ أَمْثالِنا مِنَ الضُّعَفاءِ . »
لَمْ يَكَدْ خَبَّازِيَ الْخاصُّ يَنْتَهِي مِنْ حَدِيثِهِ الَّذِي فاجَأَنِي بِهِ ،
حَتَّى انْصَرَفَ بِوَجْهِهِ عَنِّي ثائِرًا ، وَتَرَكَنِي فِي تَعَجُّبِي حائِرًا .

٢ - حَدِيثُ الزَّارِعِ

غابَ خَبَّازِى عَنْ ناظِرِى ، فَرَأَيْتُ زارِعَ أَرْضِى يَقْدَمُ عَلَىَّ ، وَيَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَىَّ ، ثُمَّ سَمِعْتُهُ يُعْلِى صَوْتَهُ ، يُواجِهُنِى بِالْكَلامِ ، فِى غَيْرِ آكْتِراثٍ وَلا آهْتِمامٍ ، وَيَقُولُ دُونَ تَحِيَّةٍ وَلا سَلامٍ :

« أَرْجُو مِنْكَ قَبُولَ الْمَعْذِرَةِ ، إِذا أَعْلَنْتُ قَرارِىَ الْأَخِيرَ . أُصارِحُكَ - أَيُّها الْحاكِمُ الْجَلِيلُ - بِما عاهَدْتُ نَفْسِى عَلَيْهِ ، ذٰلِكَ أَنِّى لَنْ أَضْرِبَ فِى أَىِّ قِطْعَةٍ مِنْ أَرْضِكَ فَأْسًا ، وَلَنْ أُلْقِىَ فِى حُقُولِكَ بَذْرًا ، وَلَنْ أَرْوِيَها بِقَطْرَةِ ماءٍ .

فَما أَيْسَرَ عَلَى حاكِمِ الْبِلادِ الْعَظِيمِ الشَّأْنِ ، الْواسِعِ السُّلْطانِ ، أَنْ يَتَوَلَّى شُئُونَ زِراعَتِهِ بِنَفْسِهِ ، دُونَ آسْتِعانَتِهِ بِغَيْرِهِ . »

ثُمَّ نَظَرَ إِلَىَّ مُتَهَكِّمًا ، وَقالَ : « إِنَّ ما عُرِفَ عَنْ حاكِمِنا مِنْ مَواهِبَ نادِرَةٍ ، وَمَزايا باهِرَةٍ ، شُهِرَ وَذاعَ ، فِى كُلِّ الْبِقاعِ ، وَفَتَنَ الْعُقُولَ وَالْأَسْماعَ ، لا خِلافَ بَيْنَنا فِى ذٰلِكَ وَلا نِزاعَ .

هَيْهاتَ أَنْ يَسْمُوَ أَحَدٌ إِلَى عَلْيائِهِ ، أَوْ يَرْتَفِعَ إِلَى سَمائِهِ ! لَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنَّ مِنْ أَصالَةِ الرَّأْىِ وَمُحْكَمِ التَّدْبِيرِ ، أَنْ أَتْرُكَ لِلْحاكِمِ الْجَلِيلِ الْخَطِيرِ ، أَنْ يَتَوَلَّى بِنَفْسِهِ تَنْفِيذَ كُلِّ ما يَعْنِيهِ مِنْ خاصَّةِ أَمْرِهِ ؛ فَإِنَّهُ - فِى الْحَقِّ - غَيْرُ مُفْتَقِرٍ إِلَى غَيْرِهِ



لا عَجَبَ فِيما أَعْرِضُهُ عَلَى الْحاكِمِ الرَّشِيدِ ، مِنْ رَأْيٍ سَدِيدٍ . فَلْيَعْمَلْ بِنُصْحِى ، وَلْيَنْفَرِدْ فِى إِنْجازِ أُمورِهِ دُونَ مَعُونَةِ أَحَدٍ . إِنْ فَعَلَ ، كانَ جَدِيرًا -بِحَقٍّ- أَنْ يَكُونَ الْحاكِمَ الْمُطْلَقَ !

أَلَيْسَ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالَى قَدْ مَيَّزَهُ بِما لَمْ يُمَيِّزْ بِهِ سِواهُ
مِنْ مَزايا فائِقَةٍ ، وَمَواهِبَ خارِقَةٍ ، زَيَّنَتْ لِشَخْصِهِ بِجَدارَةٍ
أَنْ يَتَعالَى عَلَى أَمْثالِنا ، وَيُحَقِّرَ مِنْ شَأْنِنا ، وَيُهَوِّنَ مِنْ قَدْرِنا ؟!
فَما حاجَةُ قَوِيٍّ مِثْلِهِ إِلَى ضَعِيفٍ مِثْلِي ؟ هُوَ فِي غِنًى عَنِّي .
أَوْلَى بِالْحاكِمِ الْعَظِيمِ وَأَجْدَرُ ، أَنْ يَتَوَلَّى هُوَ شُئُونَهُ بِنَفْسِهِ ،
دُونَ حاجَةٍ إِلَى غَيْرِهِ ، يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى أَمْرِهِ ، وَيُشْرِكُهُ فِي عَمَلِهِ .
لَنْ يُعْجِزَ مَنْ آتاهُ اللهُ مِثْلَ طاقَتِهِ ، واخْتَصَّهُ بِمِثْلِ بَراعَتِهِ ،
أَنْ يَحْرُثَ أَرْضَهُ وَحْدَهُ ، وَيُلْقِيَ بُذُورَها ، وَيَتَعَهَّدَ زَرْعَها ،
وَيُعْنَى بِكُلِّ ما تَحْتاجُ إِلَيْهِ الْأَرْضُ مِنْ حَرْثٍ وَبَذْرٍ وَرَيٍّ .
وَقَدْ تَرَكْتُ الْمِحْراثَ لِلْحاكِمِ الْهُمامِ لِيَحْرُثَ بِهِ الْأَرْضَ ،
وَالنَّوْرَجَ لِيَدْرُسَ بِهِ الزَّرْعَ ، وَالثَّوْرَ لِيَكُونَ طَوْعَ قِيادَتِهِ ،
وَيَسْتَخْدِمَهُ فِي جَرِّ النَّوْرَجِ ، وَالْمِحْراثِ ، وَإِدارَةِ السَّاقِيَةِ ..
وَتَرَكْتُ لَهُ الْبَقَرَةَ لِيَحْلُبَها ، وَيَصْنَعَ ما شاءَ مِنْ لَبَنِها :
جُبْنًا وَزُبْدَةً وَقِشْدَةً ، يَطْعَمُها مِنْ صُنْعِ يَدَيْهِ لَذِيذَةً هَنِيئَةً ،
وَيَأْكُلُها سائِغَةً مَرِيئَةً . وَبِذٰلِكَ يَنْفَرِدُ بِالْأَطايِبِ وَالْمَلَذَّاتِ .
وهأَنَذا أُلْقِي بِفَأْسِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، لِيُهَيِّئَ بِهِ ما يَحْلُو لَدَيْهِ . »
ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ زارِعُ أَرْضِي فِي صَلَفٍ ، وَتَرَكَنِي هازِئًا وانْصَرَفَ .

٣ - حَدِيثُ الْبُسْتانِيِّ

لَمْ يَكَدْ زارِعُ أَرْضِي يُفارِقُنِي ، حَتَّى أَقْبَلَ الْبُسْتانِيُّ عَلَيَّ ، وَقَدِ ٱرْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ أَمارَةُ الِاسْتِهانَةِ ، وَدَلالَةُ الِاسْتِصْغارِ ، وَتَجَلَّتْ فِي أَسارِيرِهِ عَلامَةُ الشَّماتَةِ بِما سَأَصِيرُ إِلَيْهِ مِنْ حالٍ .

ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيَّ مُحَدِّقًا بِنَظَرِهِ فِي وَجْهِي ، وَٱبْتَدَرَنِي قائِلًا :

« أَلَسْتَ حَقًّا مَبْعُوثَ الْعِنايَةِ الْإِلٰهِيَّةِ ، وَبَطَلَ الْأَقْدارِ الْخَفِيَّةِ ؟ أَلَسْتَ أَجْدَرَ الْخَلْقِ بِالْمَجْدِ وَالْفَخارِ ، وَأَحَقَّهُمْ بِأَكالِيلِ الْغارِ ؟ أَلَسْتَ أَوْلَى مَنْ تَحْتَ قُبَّةِ هٰذِهِ السَّماءِ ، بِالتَّعْظِيمِ والثَّناءِ ؟ تِلْكَ بَعْضُ خِلالِ حاكِمِنا وَصِفاتِهِ ، وَآياتِ أَفْضالِهِ وَمِيزاتِهِ ، يَدُلُّ عَلَى ذٰلِكَ كُلُّ حَرَكاتِهِ وَسَكَناتِهِ ، وَأَعْمالِهِ وَتَصَرُّفاتِهِ .

مَنِ ٱتَّسَمَتْ بِالرِّفْعَةِ مَكانَتُهُ ، وَعَظُمَتْ إِلَى هٰذا الْحَدِّ قُدْرَتُهُ ، هُوَ ، لا رَيْبَ ، بِكُلِّ شَيْءٍ جَدِيرٌ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ قَدِيرٌ !

هَيْهاتَ أَنْ يُعْجِزَهُ شَيْءٌ مِمَّا يُعْجِزُ أَمْثالَنا مِنَ الْخائِبِينَ ! هَيْهاتَ أَنْ يُرْهِقَهُ ما يُرْهِقُنا ، نَحْنُ أَبْناءَ الشَّعْبِ الْخاضِعِينَ ! لا يَعْجَبَنَّ الْحاكِمُ الْخَطِيرُ ، إِذا تَخَلَّى عَنْهُ تابِعٌ مِثْلِي صَغِيرٌ . أَتْرُكُ بُسْتانَ قَصْرِهِ ، لِيُعْنَى هُوَ بِأَمْرِهِ ، وَيَسْتَغْنِيَ عَنْ غَيْرِهِ . إِنَّهُ أَقْدَرُ عَلَى تَعَهُّدِ وَرْدِهِ وَزَهْرِهِ ، وَٱجْتِناءِ لَذائِذِ فاكِهَتِهِ وَثَمَرِهِ .

أَلَيْسَ اللهُ قَدْ مَيَّزَهُ ـ مِنَ الْمَواهِبِ ـ بِما لَمْ يُمَيِّزْ بِهِ سِواهُ ، وَٱخْتَصَّهُ مِنْ آياتِ الْقُدْرَةِ بِما لَمْ يَخْتَصَّ بِهِ مِنْ عَداهُ ؟

ما حاجَةُ مِثْلِهِ إِلَى الِاسْتِعانَةِ بِمِثْلِي ، لِكَيْ أَكُونَ بِجِوارِهِ : أُهَذِّبُ ـ فِي بُسْتانِهِ ـ الْأَشْجارَ ، وَأُنَسِّقُ الْأَزْهارَ ، وَأَجْتَنِي الثِّمارَ ؟

ما حاجَتُهُ إِلَى مَنْ يُقَدِّمُ مُساعَدَتَهُ لَهُ فِي تَعَهُّدِ خَلايا نَحْلِهِ ، بِما هِيَ جَدِيرَةٌ بِهِ مِنْ مُراقَبَةٍ وَرِعايَةٍ ، وَسَهَرٍ وَمُوالاةٍ وَعِنايَةٍ ، وَما إِلَى ذٰلِكَ مِنْ عَمَلٍ هُوَ فِي جُمْلَتِهِ شاقٌّ عَلَى أَمْثالِنا عَسِيرٌ ، وَلٰكِنَّهُ عَلَى أَمْثالِ الْحاكِمِ الْخَطِيرِ ، هَيِّنٌ سَهْلٌ يَسِيرٌ ؟!

كانَ يَبْتَهِجُ بِالْأَمْسِ بِما فِي بُسْتانِهِ مِنْ ناضِرِ الزَّهَراتِ ، كَذٰلِكَ كانَ يَسْتَمْتِعُ بِاقْتِطافِ ما يَنْضَجُ مِنْ أَطايِبِ الثَّمَراتِ . وَهُوَ فِي ذٰلِكَ لَمْ يَبْذُلْ جُهْدًا أَيَّ جُهْدٍ ، وَما لَقِيَ عَناءً أَيَّ عَناءٍ ؛ إِذْ لَمْ يَشْتَرِكْ قَطُّ فِي تَعَهُّدِ الْبُسْتانِ ، وَفِي الْقِيامِ بِما يَجِبُ لَهُ ، حَتَّى يَتَفَتَّحَ عَلَى الْأَغْصانِ زَهْرُها ، وَيَيْنَعَ فِي الْأَشْجارِ ثَمَرُها !

فَلْيَكُنْ حاكِمُنا الْخَطِيرُ ، صاحِبَ الْأَمْرِ فِي بُسْتانِهِ النَّضِيرِ . وَالْأَمَلُ وَطِيدٌ فِي أَنْ يُصْبِحَ بُسْتانُهُ وَثِمارُهُ ، وَنَحْلُهُ وَأَزْهارُهُ ، آيَةً مِنْ بَدائِعِ الْآياتِ ، وَجَنَّةً حالِيَةً بِصُنُوفٍ مِنَ الطَّيِّباتِ . »

تَرَكَنِي الْبُسْتانِيُّ قائِلًا : « يُؤْسِفُنِي أَنَّكَ لَنْ تَلْقانِي بَعْدَ الْآنَ . »

٤ – حَدِيثُ الْبَنَّاءِ

لَمْ يَكَدِ الْبُسْتانِيُّ يُوَلِّى ، حَتَّى أَقْبَلَ كَبِيرُ الْبَنّائِينَ نَحْوِى .
أَطالَ نَظَرَهُ إِلَيَّ فِى كِبْرِياءَ ، وَتَمايَلَ فِى عُجْبٍ وَخُيَلاءَ .
فاجَأَنِى فِى زَهْوٍ بِالْكَلامِ ، دُونَ أَنْ يَبْدَأَنِى بِتَحِيَّةٍ أَوْ سَلامٍ !
هَيْهاتَ أَنْ تَبْرَحَ صُورَتُهُ عَيْنَيَّ ، أَوْ يَغِيبَ صَوْتُهُ عَنْ أُذُنَيَّ !
ما زِلْتُ أَتَمَثَّلُهُ واقِفًا بَيْنَ يَدَيَّ ، يَقُولُ وَهُوَ يَرْنُو إِلَيَّ .
« شاءَتِ الْأَقْدارُ لِى ، أَنْ تَرَى عَيْنِى فِى صَباحِ هٰذا النَّهارِ ،
حاكِمَ بَلَدِنا « بِسِنْجارَ » : كانَ يَمْشِى بِخُطُواتِ زَهْوٍ وَافْتِخارٍ ،
وَيَنْظُرُ إِلَى غَيْرِهِ فِى سُخْرِيَةٍ وَاحْتِقارٍ .. يَضَنُّ لِسانُهُ بِالتَّحِيَّةِ
وَيَبْخَلُ بِالسَّلامِ ، وَلا يُبادِلُ عابِرِى السَّبِيلِ احْتِرامًا بِاحْتِرامٍ .
لا رَيْبَ أَنَّ حاكِمَنا النَّبِيهَ ، صاحِبُ رَأْيٍ صائِبٍ وَتَوْجِيهٍ .
لا عَجَبَ إِذا رَأَيْناهُ مِثالًا نَحْتَذِيهِ ، نُقَلِّدُهُ فِى أَخْلاقِهِ وَنُحاكِيهِ .
إِنَّ مِثْلَ حاكِمِنا جَدِيرٌ أَنْ يَكُونَ لَنا مَنارَ إِرْشادٍ وَهُدًى ،
وَأَنْ نَرَى فِى سُلُوكِهِ الْقَوِيمِ قُدْوَةً صالِحَةً لِمَنِ اقْتَدَى .
إِنَّ حاكِمَنا نُمُوذَجُ الْكَمالِ وَالنُّبْلِ ، وَعُنْوانُ الْحِكْمَةِ وَالْفَضْلِ .
يَحِقُّ لِلشَّعْبِ أَنْ يَعْرِفَ لَهُ قِيمَتَهُ الرَّفِيعَةَ الَّتِى قَدَّرَها لِنَفْسِهِ ؛
فَلا يَتَدَخَّلَ بِحالٍ فِى خاصَّةِ أَمْرِهِ ، مُتَغافِلًا عَنْ جَلِيلِ قَدْرِهِ . »

عِنْدَ ذٰلِكَ، أَلْقَى عَلَيَّ كَبِيرُ الْبَنَّائِينَ نَظْرَةً غَرِيبَةً، ثُمَّ قالَ:
« عَلَى أَنَّنِي أَلْتَمِسُ لِسَيِّدِنا الْحاكِمِ مَوْفُورَ الْعُذْرِ فِيما يُبْدِيهِ مِنْ مَظاهِرِ عُجْبٍ وَتَصَلُّف، وَكَأَنَّهُ بِذٰلِكَ غَيْرُ مُتَكَلِّفٍ.. لَقَدْ مَنَحَهُ اللهُ تَعالَى أَلْوانًا مِنَ الْقُدْرَةِ، وَفُنُونًا مِنَ السَّطْوَةِ، مَيَّزَتْهُ عَمَّنْ عَداهُ، وَجَعَلَتْهُ نَسِيجَ وَحْدِهِ بَيْنَ خَلْقِ اللهِ!
إِنَّ مَنْ تَوافَرَتْ لَهُ هٰذِهِ الْمَزايا النَّادِرَةُ، وَالْقُدُراتُ الْباهِرَةُ.
لا يَكادُ يَشْعُرُ بِقِيمَةِ الضُّعَفاءِ الْكادِحِينَ، مِنْ عِبادِ اللهِ الْعامِلِينَ.
لَهُ - إِذَنْ - أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهُمْ، وَأَنْ يُوَلِّيَهُمْ ظَهْرَهُ؛ فَلا يَسْتَخْدِمَهُمْ فِي أَداءِ عَمَلٍ مِنْ أَعْمالِهِ، وَلا يَسْتَعِينَ بِهِمْ فِي مُهِمٍّ مِنْ مُهِمَّاتِهِ.. إِنْ فَعَلَ ذٰلِكَ مَعَهُمْ، أَراحَ وَاسْتَراحَ.
لَقَدْ أَدَرْتُ الْحِوارَ، بَيْنِي وَبَيْنَ زُمَلائِي مِنْ أَهْلِ الْمِعْمارِ؛ فَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ صَحَّ عَزْمُنا وَانْتَهَى إِجْماعُنا إِلَى رَأْيٍ رَشِيدٍ، هُوَ مُكاشَفَةُ الْحاكِمِ بِقَرارٍ تُسَرُّ بِهِ نَفْسُهُ، وَيَبْتَهِجُ بِهِ قَلْبُهُ.
وَقَدْ أَوْفَدَنِي الزُّمَلاءُ لِأَرْفَعَ قَرارَهُمْ إِلَيْهِ، وَأَعْرِضَهُ عَلَيْهِ.
فَلْيَعْلَمِ الْحاكِمُ أَنَّنا تَرَكْنا لَهُ أَنْ يَسْتَكْمِلَ بِناءَ قَصْرِهِ، لِيَتَوَلَّى بِنَفْسِهِ شُئُونَ الْبِناءِ، وَيُبْدِعَهُ عَلَى أَكْمَلِ نِظامٍ يَشاءُ.»
ثُمَّ مالَ الْبَنَّاءُ عَنِّي وَانْحَرَفَ، وَتَرَكَنِي مَبْهُوتًا وَانْصَرَفَ.

٥ - وَفْدُ الصُّنَّاع



مَلَأَتْ سَمْعِي ضَجَّةٌ بَعِيدَةٌ عَنِّى ، أَخَذَتْ تَقْتَرِبُ شَيْئًا فَشَيْئًا مِنِّى .
اَلضَّجَّةُ كانَتْ لِوَفْدٍ مِنْ جَماعَةِ الصُّنَّاعِ ، فِى مُقَدِّمَتِهِمُ الْغَزَّالُ .
ما لَبِثَ الْوَفْدُ أَنِ اقْتَحَمَ عَلَىَّ عُزْلَتِى ، وَانْدَفَعَ إِلَى حُجْرَتِى .

لَمْ يَكَدِ الْغَزَّالُ يَدْنُو مِنِّى ، حَتَّى مَدَّ يَدَهُ نَحْوِى ، قائِلًا :
« إِنَّ حاكِمَنا الْعَظِيمَ لا يَجِدُ لِأَحَدٍ فَضْلًا ، كائِنًا كانَ ،
وَلا يَعْتَرِفُ بِأَيَّةِ مَزِيَّةٍ فى عَمَلٍ يَقُومُ بِهِ أَىُّ إِنْسانٍ ؛
بَلْ يَرَى نَفْسَهُ رَأْسَ الْفَضائِلِ والْمَزايا ، وَصاحِبَ الْمِنَنِ وَالْعَطايا .
فَلْيَسْتَغْنِ عَنْ عَمَلِ شَعْبِهِ الْخائِبِ ، ما دامَ ذٰلِكَ رَأْيَهُ الصَّائِبَ .
ها هُوَ ذا مِغْزَلِى أُقَدِّمُهُ إِلَى الْحاكِمِ ، فَهُوَ عَلَى الْغَزْلِ أَقْدَرُ ،
وَبِشئُونِهِ أَبْصَرُ .. وَقَدْ جِئْتُهُ بِالْمِغْزَلِ لِكَىْ يَغْزِلَ بِهِ كَما يَشاءُ .
إِنَّهُ بِذٰلِكَ يُرِيحُنِى مِمَّا أُكابِدُ ، فِى الْغَزْلِ ، مِنْ مَشَقَّةٍ وَعَناءٍ . »
بَعْدَ أَنْ انْتَهَى الْغَزَّالُ مِنْ قَوْلِهِ ، أَقْبَلَ عَلَىَّ النَّسَّاجُ قائِلًا :
« اَلْحاكِمُ الْجَلِيلُ ، أَعَزَّهُ اللهُ ، أَدْرَى مِنَّا بِالنَّسْجِ وَأَمْهَرُ .
إِنَّهُ أَعْرَفُ بِدَقائِقِ صِناعَتِهِ وَأَخْبَرُ . وَهٰذا حَقٌّ لا يُنْكَرُ .
لَقَدْ جِئْتُ الْحاكِمَ بِمِنْوالِى ، لِيَنْسُجَ عَلَيْهِ ما شاءَ لَهُ ذَوْقُهُ
الْمُبْدِعُ الْأَنِيقُ ، مِنْ نَسْجٍ رَقِيقٍ ، مَتِينٍ فِى صِناعَتِهِ دَقِيقٍ . »
ثُمَّ جاءَ النَّجَّارُ ، وَلَمْ يَكَدْ يَرانِى حَتَّى أَلْقَى إِلَىَّ بِقَدُومِهِ وَمِنْشارِهِ ،
وَإِزْمِيلِهِ وَمِسْحاتِهِ ، وَبَقِيَّةِ عُدَدِهِ وَآلاتِهِ ، وَصُنْدُوقِ أَدَواتِهِ .
صَمَتَ لَحْظَةً ثُمَّ قالَ : « عَلَى الرَّغْمِ مِنِّى ، أُوَدِّعُ أَدَواتِى .
لَقَدْ صَحِبَتْنِى ، أَعْوامًا عِشْتُها ، فَأَلِفَتْنِى وَأَلِفْتُها ، أَنِسْتُ بِها وَتَعَوَّدْتُها .



أَدَعُها لَكَ ، لا عَنْ زُهْدٍ وَلا عَنِ آخْتِيارٍ ، بَلْ عَنِ آضْطِرارٍ .
إِنَّ سَيِّدَنا الْحاكِمَ لا يُقِرُّ بِفَضْلِي ، فَهُوَ فِي غُنْيَةٍ عَنْ مِثْلِي .
أَمامَهُ عُدَّةُ النَّجّارِ مِنَ الْأَشْياءِ ، يَسْتَعْمِلُها كَما يَشاءُ . »

ما كادَ النَّجّارُ يَنْصرِفُ ، حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيَّ الْخَيَّاطُ يَقُولُ :
« جِئْتُ اللَّيْلَةَ إِلَى حاكِمِ « بِسْنَجارَ » وَمَناطِ أَمَلِها وَرَجائِها .
ها أَنذا أُقَدِّمُ إِلَيْهِ خَيْطِي وَإِبْرَتِي ، لِيَخِيطَ ثِيابَهُ بِمَعْرِفَتِهِ .
إِنَّ لَهُ حَقًّا خِبْرَةً باهِرَةً وَدِرايَةً ، وَمَهارَةً نادِرَةً وَكِفايَةً .
لِيُصَدِّقْنِي الْحاكِمُ الْعَظِيمُ ، إِذا جَهَرْتُ لَهُ بِأَنِّي لَمْ أُفَكِّرْ
فِي التَّخَلِّي يَوْمًا عَنْ مِهْنَتِي ، فَهِيَ عَزِيزَةٌ عَلَيَّ ، حَبِيبَةٌ إِلَيَّ .
كَذٰلِكَ لَمْ أُفَكِّرْ أَدْنَى تَفْكِيرٍ فِي أَنْ أَتَخَلَّى عَنْ خِدْمَتِهِ .
إِنَّهُ عَظِيمُ الْمَهابَةِ ، مَنْ يَدْعُوهُ لا يُقَصِّرُ لَهُ فِي الِاسْتِجابَةِ .
لٰكِنِّي أَفْعَلُ ذٰلِكَ ، طَوْعًا لِما عَرَفْتُهُ عَنْهُ ، وَفَهِمْتُهُ مِنْهُ .
إِنَّهُ لا رَيْبَ فِي غَيْرِ حاجَةٍ إِلَى الِاسْتِعانَةِ بِأَمْثالِيَ الضُّعَفاءِ .
الْكُبَراءُ الْأَجِلَّاءُ ، أَعْلَمُ بِشُئُونِ الْحَياةِ مِنْ أَمْثالِنا الصُّغَراءِ !
لِيَكُنِ الْحاكِمُ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّنِي مُؤْمِنٌ كُلَّ الْإِيمانِ بِقُدْرَتِهِ .
هُوَ أَدْرَى بِخِياطَةِ ثِيابِهِ وَأَخْبَرُ ، وَأَقْدَرُ عَلَى إِبْداعِها وَأَمْهَرُ . »
تَبِعَهُ التَّاجِرُ وَالصَّائِغُ وَالْحَذَّاءُ ، وَالطَّبَّاخُ وَالْحَدَّادُ وَالْكَوَّاءُ ..
هٰكَذا لَمْ يَتَخَلَّفْ أَحَدٌ مِنْ أَصْحابِ الْمِهَنِ وَالْحِرَفِ ،
وَصُنَّاعِ مُخْتَلِفِ النَّفائِسِ وَالطُّرَفِ ، مِنْ كُلِّ نَوْعٍ وَصِنْفٍ ،
يُرَدِّدُونَ أَمْثالَ هٰذا الْكَلامِ ، فِي سُخْرِيَةٍ ظاهِرُها أَدَبٌ وَاحْتِرامٌ ! »

(الفصل الرابع)

اِنْكِشافُ آلسِّرِّ

١ - رُؤْيا مَنامٍ



اِنْتَهى ما دار مِنْ حِوارٍ، بَيْنَ الصُّنَّاعِ وحاكِمِ «بِسَنْجارَ» .
أَطْرَقَ الْحاكِمُ فَتْرَةً قَصِيرَةً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، والْتَفَتَ إِلَيَّ .

قالَ : « لَمْ أَتمالَكْ أَنْ أَذْهَلَ عَجَبًا مِنْ كُلِّ ما رَأَيْتُ ، وَأَنْتَفِضَ فَزَعًا مِنْ هَوْلِ ما سَمِعْتُ ؛ فَنَدَّتْ مِنِّى صَرْخَةٌ عالِيَةٌ ، نَبَّهَتْنِى لِحُسْنِ حَظِّى مِنْ نَوْمِى ، وَكانَتْ إِيذانًا بِانْقِضاءِ حُلْمِى .

هٰكَذا كانَ كُلُّ ما حَكَيْتُهُ لَكَ ، وما قَصَصْتُهُ عَلَيْكَ ، مِنْ أَحادِيثِ أَصْحابِ الْحِرَفِ والصَّنائِعِ ، وما آعْتَزَمُوهُ مِنْ أَمْرٍ ، لَيْسَ - فِى الْحَقِيقَةِ - إِلَّا رُؤْيا مَنامٍ ، وَطائِفًا مِنَ الْأَحْلامِ ! »

أَمْسَكَ حاكِمُ « بِسِنْجارَ » عَنِ الْكَلامِ لَحَظاتٍ ، وَأَنا أُفَكِّرُ فِيما حَدَّثَنِى بِهِ ، وَأَتَعَجَّبُ ما وَسِعَنِى التَّعَجُّبُ مِنْهُ ، وَعادَ يَقُولُ :

« كانَ ما شَهِدْتُهُ مِنَ الْهَوْلِ حُلْمَ حالِمٍ ، وَأَوْهامَ نائِمٍ . لٰكِنَّهُ كانَ - عَلَى عُنْفِهِ وَشِدَّتِهِ ، وَتَناهِيهِ فِى زَجْرِهِ وَقَسْوَتِهِ - دَرْسًا بالِغَ الدَّلالَةِ عَمِيقَ الْأَثَرِ ، مَمْلُوءًا بِالْعِظاتِ وَالْعِبَرِ ! »

أَمْرَرْتُ يَدِى عَلَى جَبِينِى ، وَقُلْتُ لِلْحاكِمِ بَعْدَ تَأَمُّلٍ :

« إِنَّكَ أَيُّها الْحاكِمُ الْمُوَفَّقُ ، جَدِيرٌ بِأَنْ تَشْكُرَ لِلّٰهِ سُبْحانَهُ ما أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ ، إِذْ قَيَّضَ لَكَ هٰذا الْحُلْمَ ، لِيَكْشِفَ السِّتارَ عَمَّا فِى نَفْسِكَ ، وَيُوقِظَ ضَمِيرَكَ لِما يَنْبَغِى أَنْ تُؤْمِنَ بِهِ ، وَتَعْمَلَ فِى حَياتِكَ عَلَيْهِ ؛ فَأَراكَ أَمْثِلَةً بارِزَةً فِى عالَمِ الْأَحْلامِ ، جَلَتْ عَنْ عَيْنَيْكَ ما غَشَّاهُما بِهِ الْمُتَمَلِّقُونَ مِنْ ظَلامٍ . »

هَشَّ حاكِمُ « بِسْنجارَ » لِما صارَحْتُهُ بِهِ ، وَعَقَّبَ بِقَوْلِهِ :
« حَمْدًا للهِ فِي عَلْيائِهِ ، عَلَى مِنَنِهِ وَآلائِهِ ، وَمَوْفُورِ نَعْمائِهِ .
هٰكَذا عَرَفْتُ ، بِفَضْلِ هٰذا الْحُلْمِ ، أَنِّي كُنْتُ عَلَى ضَلالٍ ،
حِينَ حَسِبْتُنِي كُلَّ شَيْءٍ ، وَلَيْسَ هُناكَ قِيمَةٌ إِلَّا لِي أَنا وَحْدِي !
تَعالَيْتُ عَلَى النَّاسِ ، وَعَدَدْتُهُمْ أَقَلَّ مِنِّي فَضْلًا ، وَأَهْوَنَ عَمَلًا !
هٰكَذا كَشَفَ الْحُلْمُ عَنْ بَصِيرَتِي ، وَأَنارَ السَّبِيلَ لِهِدايَتِي ،
وَعَرَفْتُ بِفَضْلِهِ قِيمَةَ التَّعاوُنِ وَجَدْواهُ ، وَجَزِيلَ مِنَنِهِ وَنُعْماهُ ؛
كَما أَدْرَكْتُ كَذٰلِكَ فَضْلَ شَعْبِي عَلَيَّ ، وَمَدَى إِحْسانِهِ إِلَيَّ ..
سُرْعانَ ما تَبَدَّلَ الزَّهْوُ مِنِّي وَالْخُيَلاءُ ، وَالتَّصَلُّفُ وَالْكِبْرِياءُ ،
تَواضُعًا وَمَوَدَّةً وَإِخاءً ؛ فَجازَيْتُ النَّاسَ حُبًّا بِحُبٍّ ، وَوَفاءً بِوَفاءٍ ،
وَأَصْبَحَ عُبُوسُ وَجْهِي بِشْرًا وَابْتِسامًا ، وَتَقْدِيرًا لَهُمْ وَاحْتِرامًا .
تَفَنَّنَ الشَّعْبُ فِي إِخْلاصِهِ وَمَوَدَّتِهِ ، وَمَنَحَنِي صادِقَ مَحَبَّتِهِ ..
اِبْتَهَجَ الْجَمِيعُ بِهٰذِهِ النِّهايَةِ الرَّشِيدَةِ ، وَالْخاتِمَةِ الْمُوَفَّقَةِ السَّعِيدَةِ .
كانَ ما رَأَيْتُهُ ـ هٰذِهِ اللَّيْلَةَ ـ فِي مَنامِي ، مِنْ أَضْغاثِ أَحْلامِي ،
أَثْمَنَ ما عَرَفْتُهُ ، وَأَنْفَسَ ما وَعَيْتُهُ ، وَأَعْمَقَ ما اسْتَفَدْتُهُ . »
قُلْتُ لِلْحاكِمِ « بِسْنجارَ » : « ما أَشَدَّ إِعْجابِي بِحَدِيثِكَ الشّائِقِ ،
وَبَيانِكَ الرّائِقِ ، وَما فِيهِ مِنْ حِكْمَةٍ بارِعَةٍ ، وَعِظَةٍ نافِعَةٍ ! »

٢ - وَحْدَةُ ٱلْمُجْتَمَعِ

لَمَّا ٱنْتَهَى حاكِمُ « بِسْنَجارَ » مِنَ الْإِفْضاءِ بِقِصَّةِ حُلْمِهِ الَّذِى بَدَّلَ سِيرَتَهُ، وَأَصْلَحَ حالَتَهُ، وَكَشَفَ عَنْ حَقِيقَةِ التَّعاوُنِ الَّذِى لا مَعْدَى عَنْهُ لِأَحَدٍ ـ فِى حَياتِهِ كُلِّها ـ رَأَيْتُ أَنْ أُواصِلَ حَدِيثِى مَعَ الْحاكِمِ، فَأَدُلَّهُ عَلَى شَىْءٍ يَزِيدُ إِيمانَهُ بِأَنَّ الْمُجْتَمَعَ وَحْدَةٌ كامِلَةٌ، وَأَنَّهُ لا غِنَى لِأُناسٍ، عَنِ النَّاسِ؛ وَلِذٰلِكَ يَجِبُ أَنْ يَعْرِفَ كُلٌّ مِنْهُمْ قَدْرَ غَيْرِهِ، وَيُبادِلَهُ الْمَعُونَةَ وَالْوِدادَ.

أَقْبَلْتُ عَلَى حاكِمِ «بِسْنَجارَ»، وَقُلْتُ لَهُ فِى مُلاطَفَةٍ: « لِيَأْذَنْ لِىَ الْحاكِمُ الصَّالِحُ فِى أَنْ أُضِيفَ إِلَى مَثَلِهِ الرَّائِعِ، مَثَلًا آخَرَ مُشابِهًا لَهُ، نَراهُ واضِحًا فِى جِسْمِ الْإِنْسانِ، وَحَواسِّهِ.. فِيهِ الْحَواسُّ الْخَمْسُ: السَّمْعُ، وَالْبَصَرُ، وَالشَّمُّ، وَالذَّوْقُ، وَاللَّمْسُ. كُلُّها أَجْزاءٌ يُكَمِّلُ بَعْضُها بَعْضًا، وَيَتَعاوَنُ بَعْضُها مَعَ بَعْضٍ.

كَذٰلِكَ الْمُجْتَمَعُ ـ بِطَوائِفِهِ جَمِيعًا، مِنْ حاكِمٍ وَمَحْكُومٍ ـ أَشْبَهُ بِالْجَسَدِ الْواحِدِ، تَتَكامَلُ أَعْضاؤُهُ، وَتَتَعاوَنُ أَجْزاؤُهُ. اَلْحَياةُ حَقًّا لا تَنْمُو وَلا تَسْتَمِرُّ، إِلَّا بِفَضْلِ التَّعاوُنِ الْمُثْمِرِ.»

لَمْ يَزِدِ الْحاكِمُ عِنْدَئِذٍ عَلَى أَنْ قالَ لِى فِى خِتامِ لِقائِهِ: «حَسَنًا، حَسَنًا، يا «أَبا الْغُصْنِ». قُلْتَ حَقًّا، وَحَكَيْتَ صِدْقًا!»

(تمَّت القِصَّةُ)

﴿ يُجابُ - مِمَّا فى هٰذِهِ الْحكايَةِ - عن الأَسْئلة الآتِية ﴾ :

١ ـ كَيْفَ اكْتَسَبَ « جُحا » مِيزاتِه التى عَرَفها له النَّاس ؟
وما فائدَتُها له ؟ وماذا أَنْكر « جُحا » منهم ؟

٢ ـ لماذا لم يكن « جُحا » يُلخِّص الْحِكاية فى جُمْلَةٍ واحدةٍ أَوْ جُمْلتين ؟
وماذا كان أُسْلوبُه فى التَّعليم ؟

٣ ـ ما هى صِفاتُ حاكِم « بِسْنجار » ؟ وكيف كانَ يَرَى النَّاسَ فى بلدِه ؟

٤ ـ لماذا خفِيَت الْحقائِقُ عن حاكِمِ « بسْنجار » ؟ وماذا كانَ موْقِفُ الحُكَماءِ الْمُخلِصِين مِنْه ؟ وما الذى فوجِئَ به النَّاس ؟

٥ ـ ماذا أَدْهَش « جُحا » منْ أَمْرِ الْحاكِمِ ؟ وما الْهَدفُ الذى ابْتغاهُ ؟
وإِلَى مَنْ ذَهب ؟ وماذا دارَ بيْنهُما مِنْ حَديثٍ ؟

٦ ـ مَنِ الذى اقْتَحَم الْمكانَ على الْحاكِم ؟ وماذا دارَ بَيْنهما مِنْ حَديثٍ ؟

٧ ـ ماذا قالَ الزارِعُ للحاكِم ؟ وماذا أَلْقَى إِليْه وهو ينْصَرِف عنه ؟

٨ ـ بماذا وصَف الزَّارِعُ حاكِمَ « بِسْنجار » ؟ ولماذا تَرَكَ الْعَملَ فى قَصْرِه ؟

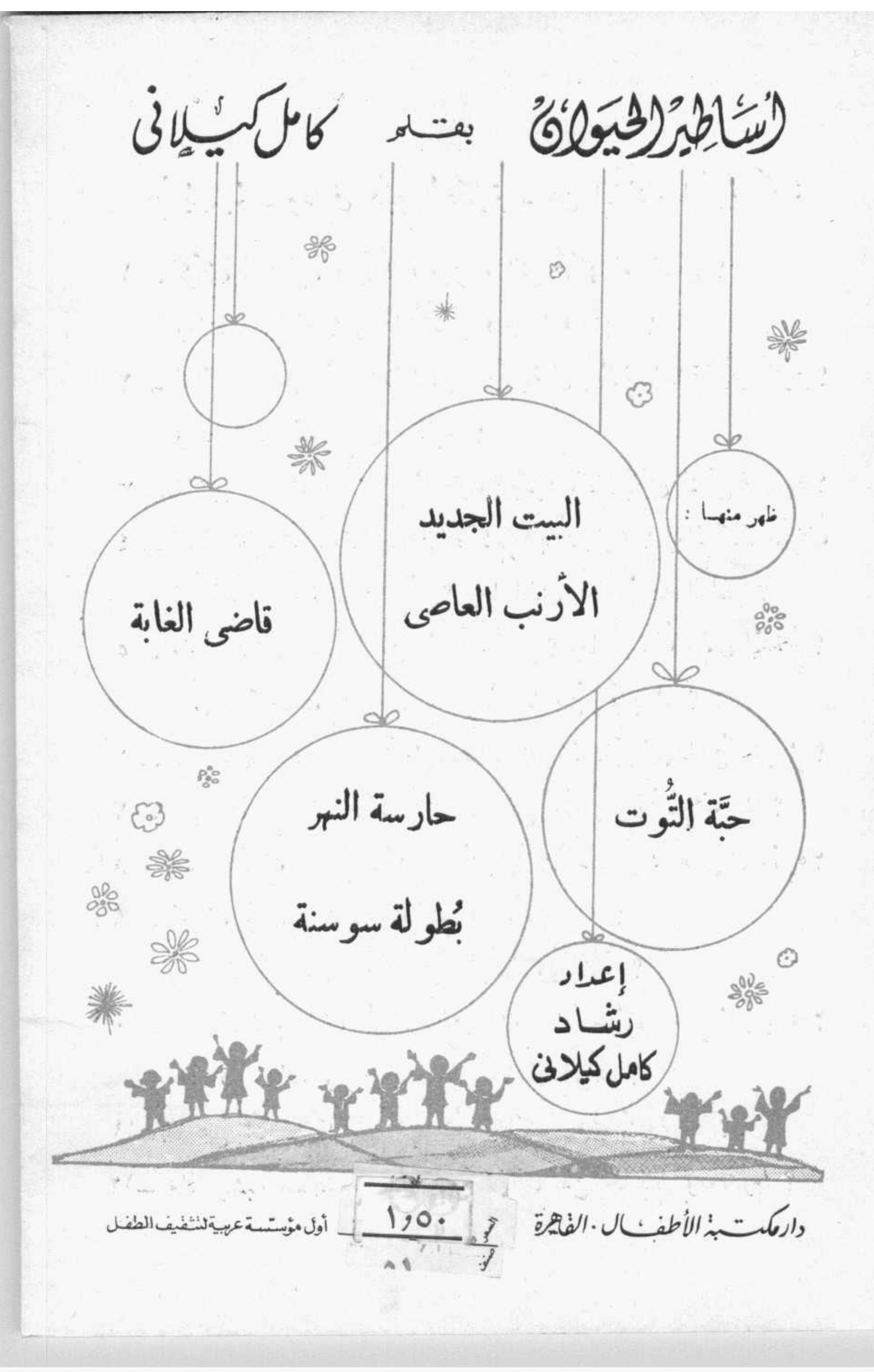
٩ ـ كَيف رَأَى الْبَنَّـاءُ حاكِمَ « بِسْنجار » ؟
وما الْقرارُ الذى أَجْمَع عليْه الْبَنَّاءُ وزُمَلاؤُهُ ؟

١٠ ـ مِمَّن كان يتأَلَّف الْوفْدُ الذى قدِم على حاكِمِ « بِسْنجار » ؟
ماذا دار بيْنه وبين كُلٍّ مِن أَعضاءِ الْوَفْد ؟

١١ ـ ما هى الْحَقِيقَة التى ظَهرَتْ لِحاكِمِ « بِسْنجار » ؟

١٢ ـ ماذا يُشْبِه المجتمعُ بطَوائِفه كلِّها ، من حاكِمٍ ومحكوم ؟

أساطير الحيوان بقلم كامل كيلانى



دار مكتبة الأطفال . القاهرة

أول مؤسسة عربية لتثقيف الطفل